

## سورة الكافرون

قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (1) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (2) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (3) وَلَا أَنَا عَابِدٌ  
مَّا عَبَدْتُمْ (4)

### سورة الكافرون

لم يكن العرب يجحدون الله ولكن كانوا لا يعرفونه بحقيقته التي وصف بها نفسه . أحد . صمد . فكانوا يشركون به ولا يقدرونه حق قدره , ولا يعبدونه حق عبادته . كانوا يشركون به هذه الأصنام التي يرمزون بها إلى أسلافهم من الصالحين أو العظماء . أو يرمزون بها إلى الملائكة . . وكانوا يزعمون أن الملائكة بنات الله , وأن بينه - سبحانه - وبين الجنة نسبا , أو ينسبون هذا الرمز ويعبدون هذه الآلهة , وفي هذه الحالة أو تلك كانوا يتخذونها لتقربهم من الله كما حكى عنهم القرآن الكريم في سورة الزمر قولهم: ( ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى) . .

ولقد حكى القرآن عنهم أنهم كانوا يعترفون بخلق الله للسموات والأرض , وتسخيره للشمس والقمر , وإنزاله الماء من السماء كالذي جاء في سورة العنكبوت: (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله) . . (ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن الله) . . وفي إيمانهم كانوا يقولون: والله . وتالله . وفي دعائهم كانوا يقولون: اللهم . . الخ .

ولكنهم مع إيمانهم بالله كان هذا الشرك يفسد عليهم تصورهم كما كان يفسد عليهم تقاليدهم وشعائرهم , فيجعلون للآلهة المدعاة نصيبا في زرعهم وأنعامهم ونصيبا في أولادهم . حتى

ليقتضي هذا النصيب أحيانا التضحية بأبنائهم . وفي هذا يقول القرآن الكريم عنهم في سورة الأنعام: وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا . فقالوا هذا لله - بزعمهم - وهذا لشركائنا . فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله . وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم . ساء ما يحكمون ! وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم ليردوهم , وليلبسوا عليهم دينهم , ولو شاء الله ما فعلوه , فذرهم وما يفترون . وقالوا: هذه أنعام وحرث حجر لا يطعمها إلا من نشاء - بزعمهم - وأنعام حرمت ظهورها , وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها افتراء عليه . سيجزيهم بما كانوا يفترون , وقالوا: ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا , ومحرم على أزواجنا , وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء . (سيجزيهم وصفهم إنه حكيم عليم . قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفها بغير علم . وحرموا ما رزقهم الله افتراء على الله . قد ضلوا وما كانوا مهتدين).

وكانوا يعتقدون أنهم على دين إبراهيم , وأنهم أهدى من أهل الكتاب , الذين كانوا يعيشون معهم في الجزيرة العربية , لأن اليهود كانوا يقولون: عزير ابن الله . والنصارى كانوا يقولون: عيسى ابن الله . بينما هم كانوا يعبدون الملائكة والجن على اعتبار قرابتهم من الله - بزعمهم - فكانوا يعدون أنفسهم أهدى . لأن نسبة الملائكة إلى الله ونسبة الجن كذلك أقرب من نسبة عزير وعيسى . . وكله شرك . وليس في الشرك خيار . ولكنهم هم كانوا يحسبون أنفسهم أهدى وأقوم طريقا !

فلما جاءهم محمد [ ص ] يقول: إن دينه هو دين إبراهيم - عليه السلام - قالوا: نحن على دين إبراهيم فما حاجتنا إذن إلى ترك ما نحن عليه واتباع محمد؟! وفي الوقت ذاته راحوا يحاولون مع الرسول [ ص ] خطة وسطا بينهم وبينه ; وعرضوا عليه أن يسجد لآلهتهم مقابل أن يسجدوا هم لإلهه ! وأن يسكت عن عيب آلهتهم وعبادتهم , وله فيهم وعليهم ما يشترط !

ولعل اختلاط تصوراتهم , واعترافهم بالله مع عبادة آلهة أخرى معه . . لعل هذا كان يشعروهم  
أن المسافة بينهم وبين محمد قريبة , يمكن التفاهم عليها , بقسمة البلد بلدين , والالتقاء في  
منتصف الطريق , مع بعض الترضيات الشخصية !

ولحسم هذه الشبهة , وقطع الطريق على المحاولة , والمفاصلة الحاسمة بين عبادة وعبادة ,  
ومنهج ومنهج , وتصور وتصور , وطريق وطريق . . نزلت هذه السورة . بهذا الجزم . وبهذا  
التوكيد . وبهذا التكرار . لتنتهي كل قول , وتقطع كل مساومة وتفرق نهائيا بين التوحيد  
والشرك , وتقيم المعالم واضحة , لا تقبل المساومة والجدل في قليل ولا كثير:

(قل يا أيها الكافرون . لا أعبد ما تعبدون , ولا أنتم عابدون ما أعبد , ولا أنا عابد ما عبدتم  
, ولا أنتم عابدون ما أعبد . لكم دينكم ولي دين).

نفي بعد نفي . وجزم بعد جزم . وتوكيد بعد توكيد . بكل أساليب النفي والجزم والتوكيد . .

(قل). . فهو الأمر الإلهي الحاسم الموحى بأن أمر هذه العقيدة أمر الله وحده . ليس لمحمد فيه  
شيء . إنما هو الله الأمر الذي لا مرد لأمره , الحاكم الذي لا راد لحكمه .

قل يا أيها الكافرون . . ناداهم بحقيقتهم , ووصفهم بصفتهم . . إنهم ليسوا على دين ,  
وليسوا بمؤمنين وإنما هم كافرون . فلا التقاء إذن بينك وبينهم في طريق . .

وهكذا يوحى مطلع السورة وافتتاح الخطاب , بحقيقة الانفصال الذي لا يرجى معه اتصال !

(لا أعبد ما تعبدون). . فعبادتي غير عبادتكم , ومعبودي غير معبودكم . .

(ولا أنتم عابدون ما أعبد) فعبادتكم غير عبادتي , ومعبودكم غير معبودي .

(ولا أنا عابد ما عبدتم).. . توكيد للفقرة الأولى في صيغة الجملة الإسمية وهي أدل على ثبات الصفة واستمرارها

(ولا أنتم عابدون ما أعبد).. . تكرار لتوكيد الفقرة الثانية . كي لا تبقي مظنة ولا شبهة , ولا مجال لمظنة أو شبهة بعد هذا التوكيد المكرر بكل وسائل التكرار والتوكيد !

وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (5) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (6)

ثم إجمال لحقيقة الافتراق الذي لا التقاء فيه , والاختلاف الذي لا تشابه فيه , والانفصال الذي لا اتصال فيه , والتمييز الذي لا اختلاط فيه:

(لكم دينكم ولي دين).. . أنا هنا وأنتم هناك , ولا معبر ولا جسر ولا طريق !!!

مفاصلة كاملة شاملة , وتميز واضح دقيق . . .

ولقد كانت هذه المفاصلة ضرورية لإيضاح معالم الاختلاف الجوهرى الكامل , الذي يستحيل معه اللقاء على شيء في منتصف الطريق . الاختلاف في جوهر الاعتقاد , وأصل التصور , وحقيقة المنهج , وطبيعة الطريق .

إن التوحيد منهج , والشرك منهج آخر . . ولا يلتقيان . . التوحيد منهج يتجه بالإنسان - مع الوجود كله - إلى الله وحده لا شريك له . ويحدد الجهة التي يتلقى منها الإنسان , عقيدته وشريعته , وقيمه وموازينه , وآدابه وأخلاقه , وتصوراتها كلها عن الحياة وعن الوجود . هذه

الجهة التي يتلقى المؤمن عنها هي الله , الله وحده بلا شريك . ومن ثم تقوم الحياة كلها على هذا الأساس . غير متلبسة بالشرك في أية صورة من صوره الظاهرة والخفية . . وهي تسير . . وهذه المفاصلة بهذا الوضوح ضرورية للداعية . وضرورية للمدعوين . .

إن تصورات الجاهلية تتلبس بتصورات الإيمان , وبخاصة في الجماعات التي عرفت العقيدة من قبل ثم انحرفت عنها . وهذه الجماعات هي أعصى الجماعات على الإيمان في صورته المجردة من الغبش والالتواء والانحراف . أعصى من الجماعات التي لا تعرف العقيدة أصلا . ذلك أنها تظن بنفسها الهدى في الوقت الذي تتعقد انحرافات وتتلوى ! واختلاط عقائدها وأعمالها وخط الصالح بالفساد فيها , قد يغري الداعية نفسه بالأمل في اجتذابها إذا أقر الجانب الصالح وحاول تعديل الجانب الفاسد . . وهذا الإغراء في منتهى الخطورة !

إن الجاهلية جاهلية , والإسلام إسلام . والفارق بينهما بعيد . والسبيل هو الخروج عن الجاهلية بجملتها إلى الإسلام بجملته . هو الانسلاخ من الجاهلية بكل ما فيها والهجرة إلى الإسلام بكل ما فيه .

وأول خطوة في الطريق هي تميز الداعية وشعوره بالانعزال التام عن الجاهلية: تصورا ومنهجيا وعملا . الانعزال الذي لا يسمح بالالتقاء في منتصف الطريق . والانفصال الذي يستحيل معه التعاون إلا إذا انتقل أهل الجاهلية من جاهليتهم بكليتهم إلى الإسلام .

لا ترقيع . ولا أنصاف حلول . ولا التقاء في منتصف الطريق . . مهما تزيت الجاهلية بزي الإسلام , أو ادعت هذا العنوان !

وتتميز هذه الصورة في شعور الداعية هو حجر الأساس . شعوره بأنه شيء آخر غير هؤلاء .  
لهم دينهم وله دينه , لهم طريقهم وله طريقه . لا يملك أن يسايرهم خطوة واحدة في طريقهم .  
ووظيفته أن يسيرهم في طريقه هو , بلا مدهانة ولا نزول عن قليل من دينه أو كثير !  
وإلا فهي البراءة الكاملة , والمفاصلة التامة , والحسم الصريح . . (لكم دينكم ولي دين) . .

وما أحوج الداعين إلى الإسلام اليوم إلى هذه البراءة وهذه المفاصلة وهذا الحسم . . ما  
أحوجهم إلى الشعور بأنهم ينشئون الإسلام من جديد في بيئة جاهلية منحرفة , وفي أناس سبق  
لهم أن عرفوا العقيدة , ثم طال عليهم الأمد (فقتت قلوبهم وكثير منهم فاسقون) . . وأنه ليس  
هناك أنصاف حلول , ولا التقاء في منتصف الطريق ,

ولا إصلاح عيوب , ولا ترقيع مناهج . . إنما هي الدعوة إلى الإسلام كالدعوة إليه أول ما  
كان , الدعوة بين الجاهلية . والتميز الكامل عن الجاهلية . . (لكم دينكم ولي دين) . . وهذا  
هو ديني: التوحيد الخالص الذي يتلقى تصورات وقيمته , وعقيدته وشريعته . . كلها من الله . .  
دون شريك . . كلها . . في كل نواحي الحياة والسلوك .

وبغير هذه المفاصلة . سيبقى الغبش وتبقى المدهانة ويبقى اللبس ويبقى الترقيع . . والدعوة إلى  
الإسلام لا تقوم على هذه الأسس المدخولة الواهنة الضعيفة . إنما لا تقوم إلا على الحسم  
والصراحة والشجاعة والوضوح . . .

وهذا هو طريق الدعوة الأول: (لكم دينكم ولي دين) . .